النحيـــــــج المصـــــــــزى

فـــــى

العصـــــــور الوســـــــطى

دكتور جابر ملامة المصـــزى

المدرس بكليـــة التربيـــة

" وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر
يأتين من كل فج عميق "

سورة الحج ٢٧

تتمتع مصر بموقع ممتاز تفردت به بين أقطـــار الأرض ، فهى ملتقى قارتين من أكبر قارات العالم القديم همـــا أفريقيا و آسيا ، فكانت مصر بمثابة القلب فى العالم القديم وحلقة اتصال بين الشرق و الغرب و الشمال و الجنوب .

وفى ظل الاسلام أحتلت مصر مكانة فريدة بين الجناحيـــن الاسيوى و الافريقى للعالم الاســـــلامى .

وقد قدر لمصر أن تقوم بدورها بارزا فى اطار الـدولـة الاسلامية الكبرى كحلقة اتصال بين الجناحين الكبيريـــــن لتلك الدولة من ناحية ، وكمركز عبور هام من ناحية أخـرى سواء للحج أو التجـــــارة .

و الحج ركن كبير وهام من أركان الاسلام ، يقول اللـــه تعالى " ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا"(١)

ومن أجل هذا أعتنى المسلمون وحكامهم بالحج منذ فجـر الاسلام فاهتموا بعمارة المسجد الحرام بمكة المكرمة ومسجد الرسول بالمدينة المنورة وحفروا الابار و العيون على الطرق المؤدية الى الاراضى الحجازية وأنفقوا المال الكثيـــر.

وتتجلى مظاهر ذلك الاهتمام فى عصر سلاطين المماليك عندما حج السلطان الناصر محمد سنة٧١٩هـ/١٣١٩م فأنعم على أمير خليص(٢) بخمسة

---

(١) سورة آل عمـــران ٩٧

(٢) خليص : حصن مابين مكة و المدينة
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٦٠ هامش ١
ويقول المقريزى : وفى سنة ٧٢٠ قاد السلطان من الحجـاز بعدمامر بخليص وقد جرى الماء فيها ، وكان قد ذكر لـه وهو بمكة أن العادة كانت جارية يحمل مال الى خليـــص ليجرى الماء من عين بها الى بركة يردها الحاج ،وقـد انقطع ذلك منذ سنين وصار الحاج يجد شدة من قلة المـاء بخليص ، فرسم بمبلغ خمسة آلاف درهم لاجراء الماء من العين الى البركة وجعلها مقررة فى كل سنة لصاحب خليص ،فأجرى صاحب خليص الماء قبل وصول السلطان اليها و استمر جملـة المال يرسل اليه فى كل سنة ووجد الماء فى البركة دائما.
المقريزى : الذهب المسبوك ص ١٠٤ هامش ٢

آلاف درهم برسم عمارة عين خليص ، وكان لها عدة سنين قد انقطعت ، وجعل ذلك مقررا في كل سنة برسم عمارتها .

وفى سنة ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٨ م أجرى الملك الناصر محمد عينا الى مكة لتوصيل الماء الى الحجاج . وفى سنة ٧٤٤ هـ/ ١٣٤٣ م أجرى نائب السلطنة بمصر عينا من منى الى بركة السلم وذلك عن طريق منى . وكذلك فعل الملك الاشرف قايتباى فأمر بتعمير عين مكة وعين عرفات سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م ، وكذلك عمر عين حنين[1] حتى وصلت مياهها الى مكة وعمر أيضا عين خليص وأجرى الماء بها .

وفى سنة ٩١٦ هـ/١٥١٠ م عمر قانصوه الغورى آخر ملوك الجراكسة بمصر عين حنين حتى جرت وملأ بركة المعلى وماجنى فى درب اليمن بأسفل مكة .[2]

---

(١) منبع هذا العين فى ذيل جبل شاهق يقال له " طاد " فى طريق الطائف من مكة ، وكانت تسمى هذه البقعة حائط حنين وهو موضع غزا فيه النبى صلى الله عليه وسلم غزوة حنين .
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٢١١

(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٢١٦ / ٢١٧

موكب الحجاج والعناية بـــــة

ومن مظاهر الاحتفال بالحج والاهتمام والعناية به فـــى مصر ، تلك الاستعدادات التى تسبق مواكب وقوافل الحجـــاج. وتمدنا المصادر بوصف رائع لتلك الاستعدادات التى تســـبق مواكب حج الملوك والسلاطين فى عصر المماليك - والذيـــن هم عادة محل اهتمام المؤرخين القدامى والحديثين - فعندما تتحرك الرغبة لدى هؤلاء لحج بيت الله الحرام تخرج أطلاب(١) السلطان من أرجاء المملكة وفيها الخيل والهجن(٢) باكـــوار(٣) الذهب والسلاسل من الذهب والفضة وجميع المقاود(٤) والمخاطم(٥) والآلات من الحرير الملون المحكم الصنع ، وتصنع القدور من الذهب والفضة والنحاس تحمل على البخاتى(٦) ليطبخ فيهـــا ، ويقوم الخولة(٧) بعمل مباقل ورياحين ومشمومات فى أحـــواض

---

(١) طلب والجمع أطلاب : لفظ كردى كان معناه الامير الـــذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، ويطلق أيضا علـــى قائد المائة ، وكان أول من استعمل هذا اللفظ بمصـــر والشام أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم عدل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة فى الجيش .
المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٤٨ هامش ٢
د.سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص٤٣٣
Dozy : Supp : Dic : Ar

(٢) الهجن : جمع هجين وهو من الخيل الذى ولدته الفرس من حصـــان عربـــى .

(٣) أكوار جمع كور : وهو الرحل يوضع على ظهر الخيل أو الابل
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٥٨ هامش ١
المقريزى : الذهب المسبوك ص ١٠٠ هامش ٣

(٤) المقاود جمع مقود : وهو الحبل الذى يشد فى الزمـام أو اللجام تقاد به الدابة .

(٥) المخاطم جمع خطام : وهو الحبل الذى يقاد به البعير .

(٦) البخاتى : جمال طوال الأعنـــاق .

(٧) الخولـة : المراد العبيـــد والخدم .

خشب تحمل على الجمال فتسير مزروعه وتسقى على طول الطريق بواسطة هؤلاء الخوله ، ويؤخذ منها كل يوم ما تدعو الحاجة اليه من البقل والكرات والكسبرة والنعناع والريحان وأنواع المشمومات . والى جانب ذلك يتم تجهيز الافسران وقلائى الجبن وصناع الكماج[١] وغيره ، ويحمل الغربان الشعير والسميد والبشماط[٢] . ومن أطراف الدولة بالشام تحمل الحلوى المصنوعة من السكر النقى والسكر داناك[٣] والفواكة والحب رمان واللوز ، وما يحتاج اليه من أصناف البطيخ كطيور الاوز والدجاج بكميات هائلة . ويجهز مركبين فى البحر الى ميناء ينبع وآخران الى جده ، ويكتب أوراق تكاليف الغليق من الشعير للأبل والهجن والخيل باسماء اثنين وخمسين أميرا ، منهم من له فى اليوم مائة علية ومنهم من له خمسون وأقلهم من له عشرون علية . فكان جملة الشعير المحمولة مائة وثلاثين الف أردب ، وهذا الرقم يوضح لنا العدد الكبير للأبل وغيرها المصاحب للقافلة .

ويتفنن الغلمان ويبدون من صنائعهم العجائب والغرائب فى حسن ترتيب الموكب ، فيعدون عشرين قطارا[٤] من الهجن

---

(١) الكماج : مفردها كماجة ، كلمة فارسية معناها خبز خمير من الدقيق الابيض الخالص ويخبز على الرماد .
المقريزى : الذهب المسبوك ص ١٠١ هامش ٢
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٥٨ هامش ٣

(٢) البشماط : البقسماط
المقريزى : الذهب المسبوك ص ٩٠ هامش ٤

(٣) السكردان : لفظ فارسى معناه الوعاء المستعمل لحفظ الحلوى
المقريزى : الذهب المسبوك ص ١٠٢ هامش ١

(٤) القطار : أن تقطر الابل بعضها الى بعض على نسق واحد وبعدد معين .

بقماش من ذهب أكوارها وعرفياتها(١) وحطمها(٢) حرير مزركش وخمسة عشر قطارا بعبى حرير ، وقطار بقماش أبيض برسم الاحرام ، ومائة فرس عليها من السروج والكنافيش(٣) وكجاوتين(٤) ومحفة(٥) حرير مزركش ، وستة وأربعين جملا محابر(٦) باغشية الحرير ، وخزانة المال على عشرين جملا .

وهذا الموكب يتم تجهيزه فى سرياقوس(٧) ويتولاه ناظر الخاص(٨) وعندما يتحرك هذا الموكب يتقدمه السلطان وأكابر

---

(١) عرفياتها : عرف الديك والفرس والدابة وغيرها ، منبت الشعر والريش من العنق .

(٢) حطمها : ربما قصد بها الدروع أو الكسوة .
المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٢٧٢ هامش ٣

(٣) كنبوش وجمعة كنابيش ، وهو خمار لتغطية الوجه ، وأطلق اللفظ أحيانا على البرذعة توضع تحت سرج الفرس ، وقد حرف اللفظ أيضا الى كنفوش وكنافيش .
المقريزى : الذهب المسبوك ص ١١٩ هامش ٦
د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤٤٥

(٤) الكجاوة : كلمة فارسية معناها هودج النساء
المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٢٧٣ هامش ١

(٥) المحفة : هى كرسيان من الخشب اذا ضما الى ظهر الجمل جلس فيهما راكبان على حيال جلوسهما على الكراسى ووجوههما الى رأس الجمل .
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٠٧ هامش ١

(٦) محابر : جمع حبره وهى ماكان من البرود مخططا .
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ٢ ص ٢٨٢ هامش ١

(٧) سرياقوس : قرية مصرية قديمة ، وهى الآن من قرى مركز شبين القناطر بمديرية القليوبية وتقع على الشاطئ الشرقى لترعة الاسماعيلية شمال القاهرة وعلى بعد ١٨ كيلومترا منها
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٧٩ هامش ١

(٨) الناظر وجمعه نظار : وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين وناظر الخاص ينظر فى خاص أموال السلطان .
د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤٥٨

الامراء وقضاة القضاه وقاضى العسكر والنظار وكاتب السر وعده من أجناد الحلقة ومماليك السلطان حيث ينزلوا ببركة الحاج[1] ومنها يتخذون طريقهم الى الأراضى الحجازية .

وعندما يدخل الموكب مكة يظهر السلاطين من التواضع والذله أمرا زائدا ويسجدون سجود العبد الخاضع و يصيرون كآحاد الناس لا يحجبهم أحد ولا يحرسهم الا الله ، ويصير منفردا يطوف ويسعى وحده فلا يعرفه الا من يعرفه ، ويكون بين جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم .

ويروى عن السلطان الناصر محمد عندما حج فى سنة ٧١٩هـ/١٣١٩ م وأستقبل الكعبة إلتفت الى أحد أمرائه وقال " لا زلت أعظم نفسى حتى رأيت البيت فذكرت تقبيل الناس الارض لى ، فدخل قلبى مهابة عظيمة لم تزل حتى سجدت لله تعالى شكرا " وغسل السلطان الكعبة بنفسه وصار يأخذ أزر احرام الحجاج ويغسلها لهم داخل البيت بنفسه ثم يدفعها لهم ، وتقدم اليه قاضى القضاه وحسن له أن يطوف راكبا فان النبى صلى الله عليه وسلم طاف راكبا فقال " ياقاضى ومن أنا حتى أتشبه بالنبى ؟ والله لا طفت الا كما يطوف الناس ، فطاف من غير أن يكون معه أحد من

---

(١) بركة الحاج أو بركة الجب : متنزه بظاهر القاهرة من بحريها ،وكان صلاح الدين الايوبى يبرز اليها للصيد، ويقيم فيها الايام وفعل ذلك الملوك قبله وبعده ويسميها العامة فى زمن المقريزى - القرن الثامن للهجرة - بركة الحاج لنزول الحجاج بها بعد مسيرهم من القاهرة ونزولهم اليها عند العودة ومنها يدخلون الى القاهرة ، ومن الناس من يقولون جب يوسف وهو خطأ ، وانما هى أرض جب عميره وعميره هذا هو ابن تميم بن جزء التجيبى نسبت اليه هذه الارض فقيل لها أرض جب عميره . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨٢
السلوك جـ ١ ص ٥٨ هامش ٢
الذهب المسبوك ص ٩٧ هامش ١

الحجاب . فصار الناس يزاحمونه ويزاحمهم كواحد منهم حتى قضى طوافه وسعيه . وكان قد بلغه أن جماعة من المغول ممن حج قد اختفى خوفا منه ، فأحضرهم وأنعم عليهم وبالغ فى اكرامهم ، وفرق فى أهل مكة مالا عظيما وأقاض التشاريف على أمرائها وأرباب وظائفها وأمير ينبع وامير خليص ، واجتمع عند السلطان من العربان ما لم يجتمع لملك قبله ، وأمراء مكة والمدينة وأشرافها .

وجرى العربان على عاداتهم العربية من غير مراعاة الآداب الملوكية وهو يحتملهم بحيث أن احدهم وهو موسى بن مهنا قال للسلطان " يابا على بحياة هذه - ومد يده الى لحية السلطان ومسكها - الا أعطيتنى الضيعة الفلانية ؟ فصرخ فيه الفخر ناظر الجيش وقال " ارفع يدك قطع الله يدك، والك تمد يدك الى السلطان !! " فتبسم السلطان وقال " ياقاضى هذه عادة العرب اذا قصدوا كبيرا فى شئ يكون عظمته عندهم مسك ذقنه - يعنى أنه قد استجاره ، فهو عندهم سنه " فقام الفخر مغضبا وهو يقول "والله ان هؤلاء مناحيس وسنتهم أنحس منهم لا بارك الله فيهم " . وهذا ان دل على شئ فانما يدل على بساطة السلطان وتواضعه أثناء تأدية مناسك الحج .

ثم تتوجه القافله بعد ذلك الى المدينه المنورة لزيارة ضريح النبى . ومن هناك يقدم المبشرين[١] يخبرون بسلامة الحجاج وكثرة الامن والرخاء وقرب وصولهم وحسن سيرهم .

وعند عودة الموكب ينزل ببركة الحاج ، فيخرج الامراء الى لقائه بها فيمد سماط عظيم[٢] . وبعد انقضاء السماط يتوجه الركب فى طريقه الى القلعة فى موكب مهيب ترفع فيه الرايات العظيمه من الحرير الاصفر مطرزة بالذهب عليها القاب السلطان واسمة وسائر دست السلطنة . وهم بالخلع وعدد كبير من التشاريف منها الاطلس والكنجى[٣] .

---

(١) قدوم المبشر سابقا ليخبر بسلامة الحاج ، كان منذ عهد الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهم ، وله حكمة لطيفة قل من يعرفها،قال الحافظ عماد الدين بن كثير فى تاريخه عن قصة حصار عثمان واستمراره حتى مضت أيام التشريق ،ورجع البشير من الحج فاخبر بسلامة الناس ،وأخبر أولئك بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع الى المدينة ليكفوهم عن أمير المؤمنين .

وأخرج مالك فى الموطأ أن رجلا من جهينة كان يشترى الرواحل فيتغالى فيها ثم يجرع السفر فيسبق الحاج فافلس، فرفع أمره الى عمر : فقال أما بعد ،أيها الناس ان الاسيقع اسيقع جهينة رضى من دينه وأمانته أن يقال سبق الحاج ألا وانه أدان معرضا فأصبح وقد دين به فهمد . فمن كان عليه دين فليأته بالغداة ،فقسم ماله بين غرمائه ،ثم كمل الدين وأخرج الخطيب البغدادى فى تالى التلخيص من طريق عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ،قال تخرج الدابة من جبل أجياد فى أيام التشريق والناس بمنى ،قال : فلذلك جاء سابق الحاج يخبر بسلامة الناس .

السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٠

(٢) السماط : المائدة ماييسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين .

د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤٢٦

(٣) الكنجى : القطنى وهو نسيج من الحرير والقطن كان يصنع بادىء أمره فى مدينة كنجة من اقليم ايران .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٦١ هامش ٣

وتزين القاهرة ومصر زينة عظيمة ، ويكثر أرباب الملاهى من الطبول والزمور . ويجلس السلطان على تخت الملك لتلقى التهانى ، ويخلع على سائر الامراء وأرباب الوظائف وأمراء العربان الخلع العظيمة ، فيكون يوما مشهودا .(١)

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام ماروا ه المقريزى عن قافلة الحاج أيام الفاطميين بقوله " ان المنفق على الموسم كان فى كل سنه تسافر فيها القافلة مائة وعشرين ألف دينار منها ثمن الطيب والحلوى والشمع راتبا فى كل سنه عشرة آلاف دينار ، ومنها نفقة الوفد الواصلين الى الحضرة أربعون ألف دينار ، ومنها فى ثمن الحمايات والصدقات وأجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون ألف دينار وأن النفقة كانت فى أيام الوزير البازورى قد زادت فى كل سنه وبلغت الى مائتى ألف دينار ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك فى دولة من الدول (٢) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٩٥/١٩٦/١٩٧/١٩٨/٢٠٠/٢٠١
جـ ٣ ص ٢٧٢/٢٧٣/٢٧٤/٢٧٥
الذهب المسبوك ص ١٠٠/١٠١/١٠٢/١٠٣/١٠٤/١٠٥/١٠٦
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهره جـ ٩ ص ٥٨/٥٩/٦١
(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٩٢
البتونى : الرحلة الحجازية ص ١٤٤

امـــــارة الحـــج

وكانت هناك وظيفة تتعلق بنظام الحج والاشراف على الحجاج في تنقلاتهم وقضاء مناسكهم وهي امرة الحج يتولاها من يسمى أمير الحج . والاماره في معناها هي القيادة لما يتبعها من واجبات واعباء تقتضيها تلك الوظيفة . فرحلة الحج كان لها وجهها العسكري لما يتطلبة الامر من التغلب على المصاعب التي تواجه الحجاج في ذهابهم وايابهم نظرا لطول الطريق وخطورته ومشقة السير فيه فقد كان الامر لا يخلو من وجود قطاع الطرق مثلما حدث عندما خرج بعضهم على الحجاج بطريق المدينة المنورة وقتلوا منهم طائفة (١) . فكان على أمير الحج - نظرا لكثره عدد الحجاج وتنوعهم - أن ينظم أمورهم ويكفل راحتهم ويحسم خلافاتهم . من ذلك ما يرويه المقريزى أنه سنه ٨١٠هـ / ١٤٠٧ م قام أمير الحج عند رحيل الحجيج من بركة الحاج بترتيبهم ليسيروا قطارين متحاذيين . وجعل الحاج ناسا بعد ناس ، وكان الحجاج يسيرون كيف شاءوا ، فاذا وطوا مضيق وقف أمير الحج بنفسة ليشرف على سيرهم فيسيروا قطارا أو قطارين بحسب الاصول حتى ينتهوا من المضيق بغير قتال ، ذلك أنه عندما تقل عناية أمراء الحاج ويصير الناس في المضايق يفضى بهم الحال الى القتال واسالة الدماء وكسر الاعضاء وغلبة الاقوياء على الضعفاء (٢) . كما كان أمير الحج يقوم ببعض

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٢٧٥
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٥٣

الأعمال الأخرى ، من ذلك عندما أشتكى الشريف حسن بن عجلان أمير مكة فى سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩ م الى أمير الحج المصرى من الأمير بيبغا أمير الرجبية والمتحدث فى عمارة الحرم وأن العبيد هموا بقتله لثقله عليهم ، فاستدعاه وأصلح بينه وبينهم ، وأقام بمكة ليتم عمارة الحرم [١].

ومن هنا تأتى أهمية امارة الحج ، والمعروف أو ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا يقام الدين ولا الدنيا الا بها ، فان الناس لا تتم مصلحتهم الا بالاجتماع لحاجة بعضهم الى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من كبير حتى قال النبى " اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم " ، وقال عليه الصلاة والسلام " لايحل لثلاثة يكونوا بفلاة من الأرض الا أمروا عليهم أحدهم " ، فأوجب تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر ، فتعين بذلك التأمير على حجاج بيت الله الحرام شرعا وهم فى الغالب جمع كثير[٢].

وقد جاء فى كتاب درر الفرائد أن أمير الحج فى أواخر القرن العاشر - كان يعينه السلطان ليلة المولد النبوى الشريف ، فاذا ما اجتمع الأمراء لدى السلطان ليلة الثانى عشر من ربيع الأول ليسمعوا القرآن ويحين وقت ادارة الشراب الحلال على الحاضرين ، يبدأ الساقى بالسلطان فيشرب من كوبه يسيرا ، ثم يأمر بالساقى الى من يريده أميرا للحج ، فاذا ما أعطى الكوب عرف أنه الأمير ، فقام للسلطان شاكرا وعرف

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٩٨٠

(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٩٦/٢٩٧

الحاضرون ، فقاموا للأمير مهنئين ، ومن ذلك الوقت يعد عدته للسفر دون أن يكون له قانون معين يسير عليه ،ويساعده علي أداء عمله أصحابه ومحبوه فيقدمون له المال والغلال والهدايا . وللأمير في نفوس الناس مكانة سامية وجاه عظيم حتى كانوا يتقربون اليه بمراعاة خدمه وغلمانه . والى جانب ذلك كان للامير أعوان يساعدونه على القيام بما عهد اليه ، فمنهم الدوادار ، وهو ينوب عن أمير الحج في المسائل التي لايتولاها بنفسه أو تكبر فيها المشقة كتسهيل الطرق والطواف على الحجاج ليلا أو نهارا اذا دعت الحاجة الى ذلك ، وتتبع اللصوص والمفسدين بأن يعين أحد شجعان العسكر الذين عرفوا بالعقل والمروءة والسياسة والفروسية والديانة .

ويعين السلطان " كاتب ديوان امرة الحج " ووظيفته قيد مايرد لامير الحج من الهدايا وغيرها . ومنهم العسس الذين يطوفون ليلا مع الحجيج يتعرفون الاخبار ويمنعون ماعساه يقع من النزاع(١) .

وأمير الحج عليه واجبات ذكرها الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية فذكر أن الولاية على الحج ضربان : أحدهما ان تكون على تسيير الحجيج ، والثاني على اقامة الحج .

فأما تسيير الحجيج فهو ولاية سياسة وزعامة وتدبير ، والشروط المعتبرة في الولي أن يكون مطاعا ذا رأي وشجاعة وهيبة وهداية حتى يستطيع أن يواجه المواقف الطارئة ويحسم الخلافات الناشئة ويسيطر على الاضطرابات العارضة . والذي عليه في حقوق هذه الولاية عشرة أشياء :

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ٢ ص ٣٠١/٣٠٢

١ - جمع الناس فى مسيرهم ونزولهم حتى لايتفرقوا فيخاف عليهم التواثب والتغرير .

٢ - ترتيبهم فى السير والنزول باعطاء كل طائفة منهم مقادا حتى يعرف كل فريق مقاده اذا سار ، ويألف مكانه اذا نزل فلا يتنازعون فيه ولايضلون عنه .

٣ - يرفق بهم فى السير حتى لايعجز ضعيفهم ولايضل عنه منقطعهم .

٤ - أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ، ويتجنب أجدبها وأوعرها .

٥ - أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعى اذا قلت .

٦ - أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم اذا رحلوا حتى لايتخطفهم داعر [1] ولايطمع فيهم متلصص .

٧ - أن يمنع عنهم من يصدهم عن السير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج بقتال أن قدر عليه او ببذل مال أن أجاب الحجيج اليه ، ولايسعه أن يجبر أحدا على بذل الخفارة [2] ان امتنع منها حتى يكون باذلا لها عفوا أو مجيبا اليها طوعا ، فان بذل المال على التمكين من الحج لايجب .

٨ - أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين ولايتعرض للحكم لهم اجبارا الا أن يفوض الحكم اليه فيعتبر فيه أن يكون من أهله فيجوز له حينئذ الحكم بينهم ، فايهما حكم نفذ حكمة ،ولو كان التنازع بين الحجيج وأهل البلد لايحكم بينهم الا حاكم البلد .

---

(١) الداعر : الخبيث الشرير الذى يسرق ويؤذى الناس
(٢) الخفاره : المنعة والامان باعطاء المال نظير لها

٩ – أن يقوم زائغهم ويؤدب خائنهم ولايتجاوز التعزير الى الحد الى أن يؤذن له فيه فيستوفيه ان كان من أهل الاجتهاد فيه .

١٠ – أن يراعى اتساع الوقت حتى يؤمن الفوات ،ولايلجئهم ضيقة الى الحث فى السير ، فاذا وصل الى الميقات أمهلهم للاحرام واقامة سننه ، فان كان الوقت متسعا عدل بهم الى مكة ليخرجوا مع أهلها الى المواقف ،وان كان الوقت ضيقا عدل بهم عن مكة الى عرفة خوفا من فواتها فيفوت الحج بها .

ثم يكون فى عوده بهم ملتزما فيهم من الحقوق ما التزمه فى صدورهم حتى يصل بهم الى البلد الذى سار لهم فتنقطع ولايته عنهم بالعود اليه .(١)

---

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٩٣/٩٤/٩٥

المحمـــل وخروجـــه

المحمل أعواد من خشب على شكل الهودج ،شكله مربـــع ذو سقف يأخذ فى الارتفاع من الجوانب الى الوسط الذى فيـه قائم ثم ينتهى بهلال . وفى العاده يسدل على ذلك الهيكـل الخشبى كسوة قد تكون من الحرير أو من غيره ، ويوضع أثنـاء السفر على ظهر جمل . وقد جاء فى كتاب الكنز المدفـــون للسيوطى : أن أول من أحدث المحامل فى طريق مكة هو الحجاج بن يوسف الثقفى . وكان يطلق على الجمل الذى يحمل الهدايا الى الكعبة المكرمة . وقد سير رسول الله محملا الى الكعبـة بهداياه الى البيـت المعظـم .(١)

والمحمل المصرى من قديم الزمان تصحبه كسوة الكعبـة(٢) ومايلزم الحرمين والصدقات التى توزع على فقرائهـا .

وللمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير وشأن عظيم منـذ أيام الدولة الايوبية ، وكانت مرتبة أميره فى المرتبـــة الثالثة من مراتب الدولة خاصة فى عهد المماليك حيث كـان يلى نائب السلطنة وله رأى مسموع وكلمة محترمة ويتولـــى وظيفته بأمر السلطان وله المكانة العالية والكلمة النافذة فى بلاد الحجاز وكثيرا ماكان يصدر أوامره بعزل وتوليـــة أمراء مكـــة .(٣)

---

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٣٠٤
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٤٠
(٢) عن كسوة الكعبة ، انظر الفصل التالى
(٣) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٤١/١٤٤

والاحتفال بخروج المحمل يتم فى السنة مرتين وهومايسمى بدوران المحمل ، وأول من أحدث ذلك بالديار المصرية السلطان الظاهر بيبرس ففى أيامه طيف بالمحمل وبكسوه الكعبة المشرفة بالقاهرة سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م[١] ولم يعهد ذلك من قبل .

وخروج المحمل فى المرة الاولى يكون بعد منتصف شهر رجب والثانية فى نصف شوال ، ويكون دورانه فى يوم الاثنين أو الخميس دون باقى الايام ، وينادى لأصحاب الحوانيت التى فى طريق دورانه بتزيين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام ، ويوضع المحمل على جمل وهو فى هيئة لطيفة وعليه غشاء من حرير أطلس أصفر بأعلاه قبه من فضة مطلية ، ويبيت فى ليلة دورانه داخل باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم ،ويحمل بعد الصبح على نفس الجمل[٢] ويسير الى باب القلعة حيث يبدأ موكب دورانه ، ثم يتوجه الوزير والقضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وأعلام الفقهاء وأرباب الوظائف وناظر الكسوة وغيرهم التى القلعة فيخرج اليهم المحمل على الجمل وأمامه الامير المعين لسفر الحجاز ومعه عسكره والسقائين على جمالهم ، ويركب جماعة من المماليك السلطانية من الرماحة مرتدين المصفات الحديد المغشاة بالحرير الملون وخيولهم عليها البركستوانات [٣] والوجوه الفولاذ كما فى

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٨
المقريزى : الذهب المسبوك ص ١١
على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٢٩
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٧
(٣) بركستوان : ما يوضع حول بدن الفرس كالدرع ويسمى (بركطوان)
د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٣٩٦

القتال وبأيديهم الرماح فيلعبون تحت القلعة كما فى حالة الحرب . ومنهم جماعة صغار بين كل منهم رمحان يديرهما فى يده وهو واقف على ظهر الفرس ، وربما كان وقوفه فى نعل من خشب على ذباب[١] سيفين من كل جهة وهو يفعل كذلك[٢] ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل شوارع القاهرة والحداة يحدون أمامهم والطبلخانات[٣] والكوسات[٤] السلطانية تضرب خلفهم ، ثم يعود الى القلعة ثم يحمل الى جامع الحاكم ويوضع فى مكان هادىء حتى شهر شوال حيث يتم دورانه الثانى فى النصف منه ، وبعد انتهاء دورانه هذه المرة يتخذ طريقه الى مكة[٥]

ومما يجدر الاشارة اليه أنه فى سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م أثناء حكم السلطان برسباى كان دوران المحمل بمصر والقاهرة فى الثامن من شهر رجب واستمر ذلك فى عهد هذا السلطان .[٦]

وأثناء هذا الاحتفال تزين شوارع القاهرة ويكترى[٧] الناس البيوت والحوانيت والسطوح ليشاهدوا المحمل واحتفال خروجه ودورانه .[٨]

---

(١) ذباب السيف : طرفه وحده
(٢) لعبت مماليك الملك المنصور قلاون بالرماح والسلاح ،وهو أول ماوقع بالديار المصرية فى عهده .
السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٠
(٣) الطبلخانات : من يدقون بالطبول
(٤) الكوسات : مفردها كوسة وهى صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق باحدها على الآخر بايقاع مخصوص .
د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤٤٥
(٥) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٨
ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٦
(٦) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٩٤٠
(٧) يكترى : من الكراء وهو أجر المتاجر ، والمراد يستأجرون البيوت وغيرها .
(٨) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ١٣

ومما يلفت النظر ماجرت عليه عادات الناس أثناء دوران المحمل وهو احضارهم أولادهم الرضع ليروا المحمل ويلمسوه فيبارك لهم فى ذريتهم ، وكانوا اذا لم يستطيعوا لمسه قذفوا بمناديلهم الى خدام المحمل بعد أن يضعوا فيها بعضا من النقود أو يملؤوها باللحوم البيضاء أو الفطير ، فيأخذ الخدم ذلك منها ويردونها الى أربابها بعد امرارها على المحمل . والذى دعا العامة الى ذلك مايعلمونه من أن المحمل يوضع داخل المسجد الحرام ، كما يوضع فى المقصورة حول قبر الرسول ، فيريدون التبرك بمحمل يزور الاماكن المقدسة.(١)

وكان للمحمل فيما مضى قاضى يفصل بمناقض به الشريعة الاسلامية فيما يجد من الحوادث بين الحجاج ، وكان يتولى هذه الوظيفة فى أيام المماليك الجراكسة (٧٨٤ - ٩٢٣هـ ١٣٨٢ - ١٥١٦ م) قاضى من قضاة المذاهب الاربعة يعينه قاضى قضاة مذهبه بناء على طلب امير الحج .(٢)

ولقد بلغ من اهتمام ملوك مصر بالاحتفال بالمحمل أنهم أمروا جميع حكام البلاد التى يمر عليها المحمل فى طريقه بأن يقبلوا خف جمل المحمل عند استقباله ، ومازال امراء مكة يقبلونه أيضا فى استقبالهم له الى أن أعفاهم من ذلك السلطان جقمق سنة ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م . فكان اذا وصل المحمل الى ظاهر مكة خرج أميرها لملاقاته ، فاذا وافاه نزل عن فرسه وأتى الجمل الحامل للمحمل فقلب خف يده وقبله خدمة لصاحب مصر .(٣)

---

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ١٣
(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٣٠١
(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٧٧

وفى أيام وجوده بمكة يوضع فيما بين باب النبى وباب السلام بكسوته اليومية[١]، فيكون هناك مزارا للناس على اختلاف أجناسهم ولاينقلونه من هذا المكان الا فى مواكبه الرسمية وعند السفر به الى المدينة المنورة .

وعند وصول المحمل الى المدينة يدخلها باحتفال كبير من باب العنبرية حتى اذا وصل الى الباب المصرى ترجل كل من فى موكبه اجلالا لمقام الرسول الكريم ، فاذا وصلوا الى باب السلام أتى شيخ الحرم واستلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصدفة الواسعة ، وهناك يرفع المحمل ويوضع فى مكانه من الحرم غربى المنبر الشريف ، وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الغضراء ، ويلبس أمير الحج ومن معه لباس الخدمة فى الحجرة الشريفة (وهو عمامه وفرجيه بيضاء مشدود عليها حزام أبيض) . ثم يحملون كسوة المحمل بكل تواضع واحترام ويدخلونها فى الحجرة الشريفة ، ولإنزال الكسوة بالحجرة الشريفة حتى تخرج يوم سفر المحمل من المدينة . ويوكبون بها فى يوم خروجه من المدينة كما كانت الحال فى يوم دخوله .[٢]

وقد روى ابن النجار فى تاريخ المدينة المنورة عن حسين بن مصعب أنه أدرك كسوة الكعبة يؤتى بها المدينة قبل أن تصل الى مكة فتنشر على الرضراض[٣] فى مؤخر المسجد ثم يخرج بها الى مكة وذلك فى سنة ١٣١ أو ١٣٢ هـ[٤].

---

(١) للمحمل المصرى كسوتان : كسوته اليومية وهى من القماش الاخضر ،وكسوته المزركشة ويلبسها فى المواكب الرسمية .
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٤٢

(٢) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٤١ / ١٤٤

(٣) الرضراض : الحصى الذى لايثبت على الارض

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٢٧٧

وعند عودة المحمل يحتفل بقدومه رسميا احتفالا كبيرا، واستمر ذلك بمصر الحديثة ، ومن عاداتهم عمل أحواض كبيرة من الماء المحلى بالسكر يشرب منها الغادون والرائحون مدة ثلاثة أيام وهى عادة قديمة جدا أخذوها عن السلف (١)

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٤٤

كسوة الكعبة

كان العرب يقدسون الكعبة فى الجاهلية والاسلام ،وعملوا على تجميلها وكسوتها بالاقمشة المختلفة ، فكسيت فى الجاهلية الانطاع[١]، وأول من كساها أسعد أبو بكر ملك حمير حين مر عليها راجعا من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة وبعد أن رأى فى منامه أن يكسوها ، فكساها بالبرود المقصبة وعمل لها بابا ومفتاحا .

ولما بنت قريش الكعبة استرفدهم بناؤها لكسوتها، فعملوا لها كساشتى من أنواع الثياب ، كلما جاءت كسوة طرحت على سابقتها ، ولم تزل قريش تكسو الكعبة حتى كان زمن أبى ربيعة بن المغيرة بن عبد الله المخزومى وكان ثريا فقال " أنا أكسو الكعبة وحدى سنة وجميع قريش سنة " فكان يفعل ذلك حتى مات . فسمته قريش العدل لانه عدل فعله بفعل قريش فى كسوة الكعبة .[٢]

حتى كان عهد النبى فكساها بالثياب اليمانية ، فلما ولى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كان طبيعيا أن يتجهوا الى مصر لتمدهم بهذه الكسوة ، فكتب الخليفتين الى مصر لتحاك فيها كسوة الكعبة من بيت المال ، فكسيت بالقباطى المصرية[٣] ،

---

(١) الانطاع : جمع نطع وهو الجلد
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٧٧ / ٢٧٨
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨١
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٤
(٣) القباطى : جمع قبطية بالضم وهو ثوب من ثياب مصر رقيق أبيض وكأنه منسوب الى القبط .
المقريزى : الذهب المسبوك ص ٤٣ هامش ١
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨٢ هامش ١
محمد عبد العزيز مرزوق : كتاب الزخرفة المنسوجة فى الاقمشة الفاطمية ص ١٦

وكساها عبد الله بن عمر بما كان يجلل به بدنه من القباطى والحبرات والاغاط .(١)

أما معاوية بن أبى سفيان فقد كساها كسوتين : كسوة عمر القباطى ، وكسوة ديباج . فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء وتكسى بالقباطى فى اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان .(٢)

وروى الواقدى عن اسحق بن عبد الله أن الناس كانوا ينذرون كسوة الكعبة ويهدون اليها البُدن(٣) عليها الحبرات، فيبعث بالحبرات الى البيت كسوه ، فلما كان يزيد بن معاوية كساها الديباج الخسروانى ، وكذلك فعل بن الزبير ، فكان يبعث الى أخيه مصعب بن الزبير بالكسوة كل سنة لتوضع عليها يوم عاشوراء .

أما عبد الملك بن مروان فكان يبعث فى كل سنة بالديباج من الشام فيمر به على المدينة ، فينشر يوما فى مسجد الرسول ثم يطوى ويبعث به الى مكة .(٤)

---

(١) الاغاط : جمع غط وهو نوع من البسط

(٢) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٤٣ هامش ١
القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٢٧٩ .
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ٢ ص ٢٨٢ .

(٣) بُدْن وبُدُن مفردها البدنة ،من الابل والبقر كالاضحية من الغنم تهدى الى مكة الذكر والانثى فى ذلك سواء،سميتبذلك لانهم كانوا يسمونها،وفى القرآن الكريم " والبدن جعلناها لكم من شعائر الله "
المقريزى : الذهب المسبوك ص ٩ هامش ٥

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٢٧٩
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ٢ ص ٢٨٢
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٤

وجاء العباسيون فكانوا يبالغون فى العناية بكسوة الكعبة ويهتمون بها اهتماما زائدا . ففى سنة ١٦٠هـ/٧٧٦ م حج الخليفة العباسى أبو عبد الله محمد المهدى ، فذكر له السدنة أن كساوى الكعبة كثرت عليها والبناء ضعيف يخشى عليه من ثقلها ، فأمر بتجريدها والاكتفاء بالكسوة الجديدة ، وهذا يشير الى أن الكسوات القديمة لم تكن تنزع عن الكعبة حتى عهد المهدى .(١)

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٧٩
المقريزى : الذهب المسبوك ص ٤٣ هامش ١
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨٣

وكانت كسوة الكعبة تصنع فى دور الطراز بالمدن المصرية وخاصة تنيس (١) وشطا (٢) وتونة (٣) ودمياط . وقد روى الفاكهى فى أخبار مكة أنه رأى بعض هذه الكسوات وعليها نصوص تفيد أنها صنعت بهذه الدور ، فمنها ماصنع فى عهد المهدى. قال " رأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها " باسم الله

---

(١) تنيس : كانت من أجل المدائن بالقرب من دمياط ، وكان طول مدينة تنيس من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع ومائتى ذراع ،وكان عرضها من الشرق الى الغرب ثلاثة الاف ذراع وخمسة وثمانين ذراع ، وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد وكان بها نحو مائة ومتين مسجدا ، وبكل مسجد منارة ، وكان بها ست وثلاثون حماما ، وبها أيضا معصره للزيت والسيرج والقصب ،وكان بها من الهاسج للقماش نحو خمسة آلاف منسج يصنعون به الثياب السرية التى لايصنع مثلها فى الدنيا ، وكانوا ينسجون بها أثوابا تسمى البنده تنسج بالذهب صناعة محكمة يباع الثوب منها بمقدار مائة دينار يحمل منها الى بغداد ، وكان يعمل طرز من الكتان بغير ذهب يباع كل طراز منها بمائة دينار وهو بغير ذهب . ولم تزل مدينة عامرة الى سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧م حتى جاء اليها نحو أربعين مركبا موسوقة جماعة من الفرنجة فحاصروها ، فلما أشرفوا على أهل المدينة هرب أهلها الى دمياط وتركوا المدينة فاستولوا عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ، ثم ألقوا فيها النار فاحترقت كلها ،وأخذوا ما قدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها واستمرت على ذلك الى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦ م فى دولة الكامل محمد الأيوبى ، فأمر بهدم ما بقى من سورها وبيوتها واستمرت خرابا من يومئذ الى الآن .

انظر : ناصر خسرو : سفر نامة

(٢) شطا : مدينة عند تنيس ودمياط وإليها ينسب الثياب الشطوية كما كانت تصنع بها كسوة الكعبة ، ويقال أنها عرفت بشطا بن الهاموك ، وكان أبوه خال المقوقس عاملا على دمياط

المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٦٥

(٣) تونة : كانت من جملة عمل تنيس يعمل بها طراز تنيس ، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة .

المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٣

من بركة الله ، مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين ـ أطله الله ـ محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة ١٥٩ هـ . وقال رأيت كسوة من كسا المهدى مكتوبا عليها " باسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحكم بن عبيده سنة ١٦٢ هـ .(١) وقال " رأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها " باسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونه سنة ١٩٠ هـ .(٢)

وقال : " رأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين هارون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها " باسم الله بركة من الله لعبد الله هارون أمير المؤمنين ـ أطال الله بقائه مما أمر به الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعته فى طراز شطا كسوة الكعبة سنة احدى وتسعين ومائة (٣) وقال

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٩٢
الذهب المسبوك ص ٤٣ هامش ١
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٥ / ١٣٦
(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٩٣
الذهب المسبوك ص ٤٤ هامش ١
(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٦٥
الذهب المسبوك ص ٤٤ هامش ١
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٦

رأيت كسوة مما يلى الركن الغربى من الكعبة مكتوبا عليها " مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة . ورأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها الا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود " مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين .(١)

أما عن كسوة الكعبة فى العصر الفاطمى فكانت مربعة الشكل من ديباج أحمر ، وسعتها مائة وأربعة وأربعون شبرا ، وكان فى حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبيا فى كل هلال أترجه ذهبية ، وفى داخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام فى الكبر ، كما كان فيها الياقوت الاحمر والاصفر والازرق ،وقد نقش فى حافاتها الآيات التى وردت فى الحج بحروف الزمرد الاخضر وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة ، وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك .(٢)

وفى عهد سلاطين المماليك ، قام هؤلاء بدورهم كاملا بتجهيز الكسوة وارسالها الى الكعبة . من ذلك عندما عزم السلطان الناصر محمد على للحج سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩م تقدم الى كريم الدين عبد الكريم ناظر الخاص بتجهيز مايحتاج اليه والسفر الى الاسكندرية لعمل ثياب أطلس برسم كسوة الكعبة(٣) الى جانب أرسال مرتبات القاضى والخطيب والائمة والمؤذنين والفراشين والقومة ، ومايحتاج اليه الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة .(٤)

---

(١) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٤٣ هامش ١
الخطط ج ١ ص ٢٩٢
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٥ / ١٣٦
(٢) د. حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٣٥
(٣) هذا نص هام يدل على أن دور الطراز بالاسكندرية بدأت فى عهد الناصر محمد تصنع كسوة الكعبة .
المقريزى : الذهب المسبوك ص ١٠٠ هامش ١
(٤) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٠٦

أما الملك الصالح اسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاون (٧٤٦/٧٤٣ هـ - ١٣٤٥/١٣٤٢م) فقد أوقف الاوقاف فاشترى من بيت المال قرى باسوس وسندبيس وابى الفيط من قرى القليوبية ووقفها على كسوتى الكعبة والحجرة النبوية الشريفة .

وفى عهد السلطان برقوق (٨٠٢/٧٨٤هـ - ١٣٩٩/١٣٨٢م) كانت كسوة الكعبة تنسج بالقاهرة بمشهد الحسين من الديباج الاسود مطرزة بكتابة بيضاء من نفس النسيج فيها " ان أول بيت وضع للناس للذي ببكه مباركا " .

وفى سلطنة الناصر فرج برقوق غير الطراز واستقرت الكتابة صفراء مشعرة بالذهب ثم جعل بعض جوانب الكسوة ديباجا أسود مكتوب فيها باللون الابيض " لا اله الا الله محمد رسول الله " . ثم جعل بعد ذلك ستارة باب الكعبة وتسمى "البرقع" من حرير أسود منشورا عليه المخايش الفضة الملبسة بالذهب(١)

ومما هو جدير بالذكر أن كسوة الكعبة فى العصر المملوكى جاءت بمثابة اعلان لحماية مصر وحكامها على الحجاز . وقد أراد شاه رخ بن تيمور لنك أن ينتزع من سلاطين المماليك مبدأ كسوة الكعبة ، وأرسل لهم عدة طلبات بذلك ، فأرسل الى السلطان برسباى سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م يرجو السماح لبعثه بكسوتها ، ولكن السلطان وقف منه موقفا عنيدا . ومن الواضح أن برسباى والمماليك خشوا أن يكون وراء طلب شاه رخ أطماع يريد تحقيقها فى الشام والحجاز ، ولاسيما أن حماية الحرمين كانت من الحقوق التى أستأثر بها

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٢٨١/٥٧/٢٨٢

سلاطين المماليك وأضفت عليهم صبغة شرعية دون بقية حكام المسلمين .(١)

وعندما تولى الظاهر جقمق عرش السلطنة سنة ٨٤١هـ/١٤٣٨م اتبع سياسة معتدلة فى علاقته مع شاه رخ فسمح له بكسوه الكعبة سنة٨٤٧هـ/١٤٤٣م بشرط أن تكون الكسوه من الداخل فقط أو تحت كسوة السلطان ، وقد بادر شاه رخ بارسال سفارة تحمل كسوته للكعبة ، وان كان العوام وبعض طوائف المماليك لم يرضوا على ذلك الوضع فاعتدوا على أعضاء البعثة القادمة بالكسوة . ومن الواضح أن المسلمين لم ينسوا للمغول ما فيهم بالاعتداء الآثم عليهم وعلى الخلافة العباسية ، لذلك كان استياء المسلمين من فكرة قيام أحد حكام المغول بكسوة الكعبة . وربما أدى احساس السلطان جقمق بهذا الشعور الى نزع كسوة شاه رخ سنه ٨٥٦هـ/١٤٥٢ م وبقيت للكعبة كسوة سلطان المماليك .(٢)

وقد اشترى السلطان سليمان بن سليم خان عده قرى بمصر أضافها الى القرى التى وقفها الملك الصالح وهذه القرى هى :

١ - سلكة ٢ - سيرو نجنجة
٣ - قريش الحجر ٤ - منايل وكوم ريحان
٥ - بجام ٦ - منية النصارى ٧ - بطاليا (٣)

ولم تزل موقوفة على ذلك حتى حل وقفها محمد على باشا فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى وتعهدت الحكومة بصنع

---

(١) د. سعيد عاشور : الايوبيين والمماليك فى مصر والشام ص ٣١٤ / ٣١٥

(٢) د. سعيد عاشور : الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام ص ٣١٦

(٣) انظر نص الوقفية بكتاب مرآة الحرمين ج ٢ من ص ٢٨٥ الى ٢٨٩

الكسوة من مالها الخاص [١].

ويتبع الكسوة ستارة باب الكعبة من خارجها ، وستارة باب التوبة من داخلها ، وكيس مفتاح بيت الله الحرام ، وكسوة مقام الخليل ابراهيم عليه السلام ، وستارة باب منبر الحرم الشريف .

وعند اتمام عمل الكسوة يقام لها موكب عظيم في منتصف شهر ذي القعدة من المكان المعروف بمصطبة المحمل الى مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه حيث يسلمها مأمور تشغيلها الى المحملي .[٢] ويعقد لهذا الغرض مجلس بحضور نائب قاضي مصر وأمير الحج ويكتب إشهاد شرعي .[٣] وهو أثر تاريخي يعرف منه القارئ تفاصيل الكسوة ومادتها ، وهي لاتختلف في سنة عنها في أخرى الا في جودة ماتصنع منه .

ويرسل مع الكسوة غلايتان من النحاس مملوءتان بماء الورد النقي لغسيل الكعبة .

وفي مكة تسلم الكسوة للقائم بسدانة الكعبة باشهاد شرعي يحضره العلماء والكبراء ، فتبقى في منزله الى صباح يوم عيد الاضحى ، فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد انزال الكسوة القديمة ، ويكون المسجد عادة خاليا من الناس لأن سوادهم يكون بمنى .[٤]

---

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨٤
البتنوني : الرحلة الحجازية ص ١٣٦
(٢) المحملي : من في عهدته المحمل والكسوة
(٣) انظر نص الاشهاد بكتاب مرآة الحرمين ج ١ ص ٧ و ٨
(٤) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٧
البتنوني : الرحلة الحجازية ص ١٣٨ / ١٣٩

أما الحجرة النبوية فليس لها كسوة سنوية كما فى كسوة الكعبة ، بل كلما بليت كسوة جددت أخرى ، ويقع ذلك كل سبع سنوات تقريبا وذلك أنها مصونة عن الشمس . وقد حكى ابن النجار فى " تاريخ المدينة " أن أول من كسا الحجرة الشريفة الشياب هو الحسين بن أبى الهيجاء صهر الصالح طلائع بن رزيك وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين عمل بها ستارة من الديبقى (١) الابيض عليها الطرز والجامات (٢) المرقومة بالابريسم (٣) الاصفر والاحمر مكتوب عليها سورة يس بأكملها ، ثم بعث الخليفة العباسى المستضىء بامر الله ستارة من الابريسم البنفسجى عليها الطرز والجامات البيضاء المرقومة وعلى اطار جاماتها مرقوم " أبو بكر وعمر وعثمان وعلى " . وعلى طرازها اسم الامام المستضىء بالله . ثم عمل الناصر لدين الله فى خلافته ستارة أخرى من الابريسم الاسود فعلقت فوق تلك . ثم عملت أم الخليفة الناصر بعد حجها ستارة على شكل ستارة ابنها المتقدمة ، فعلقت فوق الستارتين السابقتين .

ولم يزل الخلفاء فى كل سنة يرسلون ثوبا من الحرير الاسود عليه علم ذهب يكسى به المنبر . ولما كثرت الكسوة عندهم أخذوها فجعلوها ستورا على ابواب الحرم ، ولم يزل الامر على ذلك حتى سقوط الخلافة العباسية ، فتولى ملوك الديار المصرية ذلك مع كسوة الكعبة وآخر من عملها الملك الظاهر برقوق . (٤)

---

(١) الدبيقى : نسبة الى دبيق من أعمال مصر تقع بين الفرما وتنيس ، وقد اشتهرت بما كان يصنع فيها من الملابس .
د. حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٣٩ هامش ١

(٢) الجامات : علامات أو أشكال معينة مطرزة يوشى بها الثوب

(٣) الابريسم : نوع من الحرير

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣٠٢ / ٣٠٤

طريـــــق الحجـــــــاج

أولا : طريـــق ســـيناء والقلـــزم
ثانيا : طريـــق قـــوص وعيـــذاب

امتازت مصر بشواطئها الشرقية الطويلة الممتدة علـــى البحر الأحمر ، وقد حباها الله بهذا الموقع الاستراتيجـــى أن تكون حمزة الوصل بين جيرانها سكان الجزيرة العربيـــة ، ثم بلاد الهند والصين عبر المحيط الهندى . ونستدل علـــى ذلك بقول المقريزى فى وصف مصر اذ يقول " فرضة الدنيـــا يحمل خيرها الى ماسواها ، فساحلها بالقلزم (١) يحمل منـــه الى الحرمين وجدة واليمن والهند والصين وعمان والسند (٢)".

وبحر القلزم هو الاسم العربى المعروف للبحر الاحمـــر ، واشتق الاسم من الاسم القديم clusma بالقرب من السويـــس ويسمى هذا البحر أيضا بحر الحجاز ، كما يسمى أيضا بحـــر اليمن وربما هذا يطابق الجزء الجنوبى من البحر الاحمر فقط (٣).

---

(١) القلزم : موضع على البحر الاحمر قرب مدينة السويـــس الحالية ، وكان فرضة مصر والشام ومنه تحمل المتاجـــر الى الحجاز واليمن ، ثم أنه أصبح خرابا زمن ياقـــوت فتحول طريق الحجاج والتجارة الى موضع السويس .
المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٨
ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ١٥٨/١٦١

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٨
د. أحمد مختار العبادى : البحرية الاسلامية فى مصـــر والشام ص ٢٥٣

(3) Article Bahr of kulsum by : Becker and Reckingham (in enc. of islam).

ويتشعب البحر الأحمر فى شماله الى شعبتين منفرجتين هما خليج العقبة وخليج السويس ، ويبلغ طوله من القلزم حتى باب المندب نحو ٢٢٤٠ كيلو متر ، كما يبلغ عرضه فى أوسع نواحيه ٣٥٠ كيلو متر . أما تسميته بالاحمر فهذا يرجع الى زمن الاغريق الذين سموه بهذا الاسم نسبة الى لون الشعب المرجانية الحمراء التى تكثر فيه .(١)

وقد أدى البحر الأحمر دورا هاما فى نقل الحجاج والبريد نظرا لاهتمام الخلافة الاسلامية بتأمين سلامة الحجاج وعمارة الطرق التى يسلكونها وتوفير الراحة فيها .

واهتم حكام مصر بمنطقة البحر الأحمر وأسسوا سياسة تقليدية ثابتة تقوم على تأمين وضمان سلامة الحجاج ،وكثيرا مادفعتها تلك السياسة فى فترات قوة سلاطينها الى التدخل عسكريا فى حكم تلك البلاد.(٢)

---

(١) د. أحمد مختار العبادى : البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ٢٥٣

(٢) د. أحمد مختار العبادى : البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ٢٥٩

وقد أصبحت ميناء القلزم طريقا للحجاج بعد أصلاح الطريق وعمارته من مصر الى أيلة [١] ثم الى المدينة المقدسة ،وهي مسافة قريبة يكون البحر منها يمينا وجبل الطور يسارا [٢] فكان الحجاج المصريين يسيرون فى خليج أمير المؤمنين [٣] الى القلزم ومنها يركبون البحر الاحمر

---

(١) آيلة بلدة قديمة جدا سميت بأيلة بنت مدين بن ابراهيم أول حد الحجاز وكانت مدينة جليلة عامرة منذ زمن مدين على ساحل البحر بها التجارة الكثيرة وأهلها خليط من الناس ، وكانت فى مدة سليمان بن داود ميناء كبيرة للمراكب الوافدة الى الشام من اليمن والهند وفارس ولما أتى النبى الى غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة أتاه بن رؤبة صاحبها وصالحه وأعطاه الجزية ، وكانت فى الاسلام منزلا لبنى أمية وأكثرهم موالى عثمان بن عفان وكانوا سقاة الحاج . وفى سنة ٥٦٦ هـ استولى الفرنجة عليها فى الحروب الصليبية ولكن صلاح الدين أخذها عنوة وطردهم منها ، وهى الآن قرية صغيرة فى أيدى عرب الحويطات ، وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع وعدد سكانها قليل وفيها نخيل وأشجار وماؤها حلو ويزرع بها الخضروات وبينها وبين السويس نحو ٣٠٠ كيلو متر .

المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٨٤
البيتشونى : الرحلة الحجازية ص ٣٤/٣٥هامش١

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٦

(٣) حيثما فتح العرب فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب زادت الروابط بينهما وبين الجزيرة العربية وزادت أهمية البحر الاحمر . ويتجلى هذا الاهتمام فيما أقدم عليه عمر باعادة حفر القناة النيلية التى كانت تصل النيل بالبحر الاحمر والتى كانت تبدأ شمال مصر القديمة بقليل وتنتهى قرب مدينة القلزم (السويس الحالية) بغية تسهيل سير السفن بين البحر الاحمر والنيل . وقد ذكرت أسماء مختلفة على الخليج ، فيذكر المقريزى أنه سمى خليج أمير المؤمنين وخليج مصر ، ثم صار يعرف بخليج القاهرة بعد بناؤها على يد جوهر الصقلى ،وأطلق عليه اسم الخليج الحاكمى زمن المقريزى .

المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٤٠ / ١٤٤
القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٠٢
د. محمد حمدى المناوى : نهر النيل فى المكتبة العربية ص ١٢٨

الى اتجاه ميناء جدة أو يسيرون من القلزم الى أيلة على طرف خليج العقبة .(١)

ويروى المقريزى أن هناك طريقا بريا عبر سيناء كان يرتاده الحجاج بكثرة وهو طريق أيلة التى كانت عند موقع العقبة الحالية ، فيسير الحجاج من مصر عن طريق البر الى القلزم ، فاما أن يركبون البحر الى الجار(٢) ـ واسا أن يسيروا الى أيلة وبعدها الى بلاد الحجاز ، وكان هناك ست مراحل (٣)بين القلزم وأيلة .(٤)

وكانت قوافل الحجاج تسير على هذا الطريق على النحو الذى وصفه السيوطى عن ابن فضل ، قال " فيخرج الركب من مصر بالمحمل السلطانى والزاد والاشربة والادوية والعقاقير والاطباء والكحالين والمجبرين والادلاء والأئمة والمؤذنين والامراء والجند والقاضى والشهود والامناء فى أكمل زى،واذا نزلوا منزلا أو رحلوا مرحلا تدق الكوسات وينفر النفير ليؤذن للناس بالرحيل ، فاذا خرج الركب من القاهرة نزل بالبركة على مرحلة واحدة فيقيم بها ثلاثة أيام أو أربعة ،ثم يرحل الى السويس فى خمس مراحل ، ثم الى نخل فى خمس مراحل، ثم الى أيلة فى خمس مراحل ، فينزل منها الى حجز بحسر

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٣١

(٢) الجار : هو ساحل المدينة المنورة ، وهى قرية كثيرة القصور والاهل على شاطىء البحر الاحمر فيما يسامت ارض المدينة ، ترفأ اليها السفن من مصر والحبشة ،ومن البحرين والصين .
المقريزى : الذهب المسبوك ص ١٥ هامش ٣

(٣) المرحلة : هى المسافة التى يقطعها المسافر فى يومه والجمع مراحل .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢١٣

القلزم ويمشي على حجزه حتى يقطعه من الجانب الشمالي الى الجانب الجنوبي ويقيم به أربعة أيام أو خمسة ، ثم يرحل الى حفل مرحلة واحدة ، ثم الى بر مدين في أربع مراحل وبه مغارة شعيب عليه السلام ، ويقال أن ماؤها هو الذي سقى موسى عليه السلام غنم بنات شعيب ، ثم يرحلون الى عيون القصب [1] في مرحلتين ومنها الى المويلحة في ثلاث مراحل ، ثم الى الأزلم في أربع مراحل ، ثم الى الوجه في خمس مراحل وماؤه من أعذب المياه ، ومنها الى أكرى في مرحلتين ، ثم الى الحوراء وهي على ساحل بحر القلزم في أربع مراحل وماؤه شبيه بماء البحر ، ثم الى نبط في مرحلتين ، ومنها الى ينبع في خمس مراحل ، ويقيم عليه ثلاث أيام ، ثم الى الدهنا في مرحلة ، ثم الى بدر وهي مدينة حجازية في ثلاث مراحل وبها عيون وجداول وحدائق ، وبها الجار ثم يرحل الى رابغ في خمس مراحل وهي بأزاء الجحفة التي هي الميقات ثم يرحل الركب الى خليص في ثلاث مراحل وبها بركة عملها الامير أرغون الناصري ، ثم الى بطن مرّ في ثلاث مراحل ، وفي طريقه بئر عسفان ثم يرحل من بطن مر الى مكة المشرفة مرحلة واحدة . [2]

وكان أمير الحج اذا ماوصل قبيل السويس يرتب القافلة كلا في مكان معين بجماله وذويه وخدمة ، ثم يجمع الركب من الطليعة الى الساقة ويضبط أطرافه ونواحيه بجماعة من العسكر بعد أن يسير أصحاب الحمول والأموال وسط الركب .

---

(١) عيون القصب : منزله في طريق الحج المصري ببلاد الحجاز بين العقبة والمويلح قريبة من شاطئ البحر الاحمر على بعد ثمانين كيلو متر شمالي المويلح في مكان يخرج منه الماء بين جبلين فينبت حوله من القصب الفارسي وغيره شيء كثير ولهذا عرفت بعيون القصب .
ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٧١٠ هامش ٢

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢١٩ / ٢٢٠

وطريق البر شاق جدا وخصوصا فى المنطقة التى بين السويس والعقبة ، فهى أرض رملية ناعمة تسوخ فيها أخفاف الجمال قبل أقدام الرجال ، ولا يهتدون فيها الى الطريق الا بواسطة نواطير أشبة بطواحين الهواء أقيمت لهذه الغاية . وقد كان فى بعض القرى الكائنة على الطريق مخازن للميرة ومؤن للجمال .(١)

أما الطريق الآخر الذى سلكة حجاج مصر فهو طريق قوص - عيذاب ، واتخذه غيرهم من المسلمين طريقا يقصدون به الاراضى المقدسة ، اذ كانت مصر ولا تزال الطريق الى حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فى نصف الكرة الارضية الغربية ، باعتبار مكة قلب العالم . فالأندلسى الذى كان يسكن فى غرب أوربا ، والمغربى القاطن فى غرب افريقيا وما دونه من مسلمى البربر ، فالسنغال فبلاد التكرور والسودان الغربى والشرقى ، كانوا اذا قصدوا الحج سافروا من بلادهم الى مصر بحرا أو برا ، ولهذه الغاية كان يقصدها كثير من أهالى الشام والترك والقوقاز وغيرهم من مسلمى روسيا وسيبريا وجزائر البحر المتوسط(٢) .

وطريق الحجاج المصريين هو نفس الطريق الذى سلكة الحجاج المغاربة والذى يمدنا الرحالة ابن جبير بوصف له عند التحدث عن طريق هؤلاء الحجاج فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . فيقول أنهم قصدوا مصر عن طريق البحر فوصلوا الى ثغر الاسكندرية(٣) ومنها تتوجه القافلة

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٣٣
(٢) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٨/٢٧
(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٤٤

الى القاهرة حيث ينزلون بمسجد أحمد بن طولون الذى جعلته السلطان مقرا لمكن الحجاج المغاربة واقامتهم أثناء مرورهم بمصر وأجرى عليهم الارزاق فى كل شهر[١] وعندما يتم اجتماعهم يسيرون من مصر الى قوص[٢] يقطعونها برا أو عن طريق النيل فى نحو عشرين يوما ، والقرى فى طريقهم متصله على شاطئ النيل . فمنها قرية تعرف بـ " أسكر" فى الضفة الشرقية من النيل يحكى أن فيها كان مولد النبى موسى عليه السلام، ومنها ألقته أمه فى اليم وهو النيل ، وبقرب النيل المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق وبها موضع السجن الذى أقام فيه ، وأهراء الطعام التى أختزنها ، ومنها الى الموضع المعروف بمنية ابن الخصيب وهى مدينة على الشاطئ الايمن للنيل كبيرة الساحة متسعة المساحة [٣] كثيرة الاسواق والحمامات وسائر مرافق العدن ، وعلى مقربة منها المسجد

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٢/٥٣

(٢) قوص : مدينة تقع على الشاطئ الشرقى للنيل جنوبى القاهرة بنحو ٣٥٠ ميل ،وظلت فى القرون الاولى للهجرة محطة استقبال للحجاج القادمين من مصر والمغرب وكانت أبنيتها تبعث على العجب ، وهى مدينة قديمة محاطة بسور من الحجر وأكثر أبنيتها من الحجارة الكبيرة ، وموسم الحج بها كان له طابع مميز وذلك لانه يحمل دلالتين: الاولى هى الدلاله الدينية وهى بيت الله الحرام والطواف بالكعبة وزيارة الروضة الشريفة ، والدلاله الثانية هى الدلاله الاقتصادية التى كانت تعيشها المدينة خلال هذا الموسم من كل عام .
ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٥
المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٨١
القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٤ ص ٣٧٣
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٩٢
ناصر خسرو : سفر نامة ص ٧١/١٣١
محمد عبده الحجاجى : قوص فى التاريخ الاسلامى ص ٨٥

(٣) : ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص ٢٦

المنسوب لابراهيم الخليل ، ويقال أن بفنائة أثر أقدام الدابة التى كان يركبها .

وفى الطريق بالشاطئ الشرقى للنيل الجبل المعروف بجبل المقله وهو نصف الطريق الى قوص من مصر اليه ثلاثه عشر بريدا[١] ومنه الى قوص مثلها . [٢]

ومن الاماكن التى يجتازها الحجيج بعد جبل المقله مدينة منقلوط بمقربة من الشاطئ الغربى بها الاسواق ، واشتهرت بزراعة القمح ، ومنها الى مدينة أسيوط وهى من مدن الصعيد الشهيرة بينها وبين الشاطئ الغربى من النيل مقدار ثلاثة أميال وهى جميلة المنظر حولها بساتين النخل ولها سور عتيق .

وعلى الشاطئ الغربى للنيل أيضا موضع يعرف بأبى تيج به الأسواق وسائر مرافق المدن . وفى الطريق الى قوص مدينة اخميم وهى أصيلة البنيان عجيبة الشان[٣] بها مسجد ذى النون المصرى ومسجد داود أحد الصالحين المشهورين بالخير ، وبهذه المدينة آثار ومصانع وكنائس معمورة [٤].

---

(١) بريد: كلمة فارسية معناها " مقطوع " ويقال أن الفرس استخدموا فى نقل البريد دواب مقطوعة الذنب تمييزا لها عن غيرها ، فسميت " بريد ذنب " ثم حذف العرب كلمة ذنب واقتصروا على لفظ بريد . والبريد فى الأصل اسم لمسافة مقدرة باربعة فراسخ .
القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٥٨ ، ج ١٤ ص ٣٦٦

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٦

(٣) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص ٢٨

(٤) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٨

وبعد أخميم موضع يعرف بمنشاة السودان على الشاطىء الغربى من النيل وهى قرية عامرة بينها وبين النيل رصيف عال يشبة السور من الحجاره .

ومن الاماكن التى يجتازها الحجاج بعد ذلك ، موضع يعرف بـ " البلينا " وهى قرية حسنة كثيرة النخل بالشاطىء الغربى من النيل ، ثم موضع يعرف بـ " دشنة " بالشاطىء الشرقى وهى مدينة ذات سور فيها جميع مرافق المدن بينها وبين قوص بريدان ، ثم موضع يعرف بـ " دندره " وهى مدينة من مدن الصعيد كثيرة النخل حسنة المنظر بينها وبين قوص بريد واحد ، ثم قنا وهى مدينة بيضاء أنيقة المنظر ومن مآثرها احتجاب نسائها والتزامهن البيوت[1] ومن هذه المدن " قفط " وهى بشرقى النيل وعلى مقدار ثلاثة أميال من شاطئة ، وهى من مدن صعيد مصر حسنا ونظافة وبنيان وأتقان موضع .

ثم يكون الوصول الى " قوص " فينزل الحجاج بفندق ينسب الى ابن العجمى بالمدينة ، وهى ربض كبير خارج المدينة على باب الفندق المذكور ، ثم تأخذ قوافل الحجاج طريقها من هذا الربض الى مكان يقال له " المبرز " وهو موضع فى الاتجاه القبلى من قوص على مسافة قريبة منها فسيح المساحة محاط بالنخيل يجتمع فيه الحجاج حيث يتم وزن ما يحتاج الى وزنه على الحمالين[2] ،وفيه تعد وتجهز الابل استعدادا

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٠

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦١

لشد الرحال الى عيذاب[1] عبر الصحراء الشرقية لمده خمسة عشر يوما يقطعون فيها نحو ١٦٠ كيلو مترا . والابل هى

---

(١) عيذاب : مدينة على الشاطىء المصرى للبحر الاحمر على ساحل بحر جده غير مسوره وأكثر بيوتها أخصاص ، وكانت من أشهر الموانى الاسلامية وأعظم مراسى الدنيا فى القرون الوسطى ، فهى ميناء لمصر الشرقية من قديم الزمان أى أنها كانت من مصر بالامس مكان ميناء السويس الحالى . وكانت مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة . وكان يسكن فيها (حاكمان) حاكم بدوى من طرف شيخ قبائل الباجة والاخر تابع لحاكم مصر ، وكانا يأخذان عوائد مرور قدرها عشرة جنيهات عن كل حاج مغربى وسبعة جنيهات على الحجاج الاخرين ، ويقتسمان ما يحصل بينهما وبين أمير مكة

ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٣/٦٤
المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٢٧
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٨/ ٣٠

أما قبائل الباجه أو البجاه أو البجه ، يقال أنهم من البربر وهم قوم لا دين لهم ولا عقل ورجالهم ونساؤهم أبدا عراه ، وعلى عوراتهم خرق ، وكثير منهم لا يسترون عوراتهم وكانوا يسكنون صحراء مصر الشرقية من سواكن الى قرية يقال لها الخزية فى صحراء قوص ، وهذه الصحراء عامره بمعادن الزمرد والذهب والفضة والحديد ، وكانت العرب تستخرج منها المعادن وخصوصا (التبر) فى القرنين الاول والثانى للهجرة ، وذلك بالاتفاق مع ملك البجة الذى كان مقره أسوان وكان ينال المسلمين منه ومن قومه أذى كبير . فارسل المأمون اليه عبد الله بن الجهم فكانت له معهم وقائع ، ثم وادعهم وكتب بينة وبين كنون رئيسهم كتابا يدل على مقدار التسامح الاسلامى مع أهل الذمة ، وكيف أنه لا يفرق بينهم وبين المسلمين فى المعاملة .

المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٢٨
ناصر خسرو : سفر نامة ص ٧٣
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٨ هامش ١

انظر نص الكتاب ص ٢٨ ، ٢٩ هامش ١

الوسيلة الوحيده للانتقال في ذلك الوقت . وركوب الابل كان يتم على طريقتين : الاولى لذوى اليسار يستعمل عليها الشقادف[١] وهى أشبة بالمحامل ، وأحسن أنواعها اليمانية يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة ، ولها أذرع قد حفت بأركانها يكون عليها مظلة ، فيكون الراكب فيها مع عديلة في كن من لفح المهاجرة[٢] ويقعد مستريحا في وطائه متكئا يتناول مع عديلة ما يحتاج اليه من زاد وشراب ، ويطالع متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب ، ومن شاء اللعب بالشطرنج يستطيع أن يلاعب عديلة[٣] تفكها واجماما للنفس.

والطريقة الاخرى لاكثر المسافرين من عامة الحجاج ، فهى الابل المجردة من المحامل والسروج ، فيكابدون من سموم الحر عنتا ومشقة .

---

(١) الشقدف : عبارة عن سرير من الخشب وقاعدتيهما من الحبال ، وعلى حافة كل سرير من الجانب الخارجي والخلفي شبكة من عيدان أشجار السنط بحيث اذا ضم السريران الى بعضهما على ظهر الجمل بجبال متينة يكونان قبه يغطونها بشيء من الحشيش وركابها يقعدون عليها في الغالب بعض الاكلمه المغربية او التركية فتقى الراكب من الشمس والمطر .
والشقدف يسع شخصين ويمكنهما أن ينامنا فيه كما يمكن أن يجلس فيه الراكب على راحته بواسطة مخدات صغيرة خفيفة يضعها على ما يجب .
البتنوني : الرحلة الحجازية ص ٢٠٧ هامش ١

(٢) لفح المهاجره : وهج الشمس وحرها الشديد ، والمراد أنه يحتمى من حرارتها الشديده .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٢

والطريق الى عيذاب له مسلكان (قوص - عيذاب ، قنا - عيذاب) وهذان الطريقان يمران فى صحراء عيذاب [١] ويلتقيان بموضع يقال له ماء العبدين [٢]. والطريق الاول أقل مسافة من الثانى[٣]. وطريق الحجاج عبر هذه الصحراء يبدأ من المبرز الى ماء يعرف بالحاجر ثم الى قلاع الضياع ثم الى محط اللقيطة ومنها الى موضع ماء العبدين ، ثم الى مكان يعرف بـ " دنقاش " ومنها الى ماء شاغب ثم الى ماء امتان وهى فى بئر معينة خصها الله بالبركة وهو أطيب مياه الطريق وأعذبها ، ومنها الى ماء يعرف بـ " مجاج " الى ماء يعرف بـ " العشراء " على بعد مرحلتين من عيذاب ،وبهذا المكان كثير من شجر العشر[٤] وهو شبيه بشجر الأترج[٥] لكن لا شوك له . ثم يسلك الحجاج طريقا سهلا رمليا يسمى

---

(١) يذكر المقريزى أن صحراء عيذاب كانت مزدهره فى القرن الخامس الهجرى باعتبارها طريق حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتى سنة ، فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة أهلة بما يمتار أو يرد من قوافل التجار والحجاج حتى أن أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاه بها والقوافل صاعده وهابطة لا يعترض لها أحد الى أن يأخذها صاحبها ، ولم تزل مسلكا للحجاج فى ذهابهم وأيابهم من سنه ٤٥٠هـ الى ٦٦٠ هـ .
المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٧

(٢) موضع به ماء ينسب للعبدين ، ويذكر أنهما ماتا عطشا قبل أن يرداه ، فسمى ذلك الموضع بهما وقبرهما به .
ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦١

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٣

(٤) شجر العشر : نوع من الشجر كبير عريض الورق وله صمغ حلو

(٥) شجر الاترج : نوع من الفاكهة واحدته أترجة .

الوضح ثم الى ماء الخبيب ومنه مباشرة الى ميناء عيذاب[١].

وكان الحجاج يقيمون فى عيذاب نحو شهر فى انتظار المراكب التى تحملهم الى جده ويسمونها " الجلاب "،وهى الوسيلة الوحيده المعروفة لركوب البحر آنذاك ، وهى من نوع بسيط لكنة يمتاز بالمتانة فى الصنع .

وكان أهل عيذاب الذين يطلق عليهم العيذابيون مهره فى صنع هذه المراكب ، وذلك لانها كانت الوسيلة الوحيدة للتكسب والرزق يحملون فيها الحجاج والتجار الى جده ويردونهم وقت انقضائهم من أداء الفريضة ، وتلك الجلاب كانت تصنع من خشب كانوا يستوردونه من الهند واليمن بطريقة لا تدخل فيها المسامير الحديدية البته ، وذلك بأن يقطع الخشب ألواحا بمقاييس معينة بحيث يتضافر بعضة مع بعض عند تركيبة بطريق التعشيق ، ثم تجمع هذه القطع ويربط كل منها مع مايشابهها بحبل مصنوع من القنبار[٢]وهو ليف قشر جوز النار جبل[٣] ، ثم يخاط جسم المركب كله بعد ذلك بحبال من عيدان النخيل خياطة محكمة بحيث لا يترك فرجة

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٣

(٢) القنبار : هو ليف جوز النارجيل ويدبغ فى مصر على الساحل ، ثم يضرب بالمراقب ثم يغزله النساء ويصنع منه الحبال لخياطة المراكب .
ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٢١
ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٥

(٣) نبات النارجيل : هو جوز الهند ، وهذا الشجر من أغرب الاشجار شأنا وأعجبها أمرا ، وشجره شبة النخل لا فرق بينهما ، الا ان هذه تثمرجوزا وتلك تثمر ثمرا، وجوزها يشبة رأس ابن آدم لأن فيها ليف يشبة الشعر وهم يصنعون منه حبالا يخيطون به المراكب عوضا عن مسامير الحديد ويصنعون منه الحبال للمراكب .
ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٦٧

أو خرق صغير ، وبعد أن يتم بناء الجسم بهذه الصورة يدهنوه بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن سمك القرش وهو أحسنهم ، وذلك لاعطاء قدرا من المرونة لجسم المركب حتى تتحمل الصدمات والاحتكاكات الناشئة من كثرة الشعاب الصخرية المعترضة في مجرى هذا البحر .

أما أشرعتها فهي مصنوعة من خوص شجر المقل (الدوم) . ورغم ضعف بنية هذه المراكب الا انها مناسبة لطبيعة مجرى البحر بسبب مرونتها .

وكان الجشع يملأقلوب العيذابيين ، فصاحب المركب لاتهمه سلامة الحجاج بقدر مايهمه جمع المال ، فيشحنونها بأكثر من حمولتها حتى تغدو كأنها أقفاص الدجاج المملوءة ، ويقولون في ذلك مثلا متعارف عليه بينهم " علينا بالألواح وعلى الحجاج بالارواح " . وكثيرا ماكانت تغرق في وسط البحر بمن عليها من الحجيج الذين يذهبون ضحية مطامع أولئك الاشرار ، ومن وصل به طول عمره الى جدة وصلها في نحو أسبوعين يتقلب في أثنائها بين تحكم الملاح وتبرم الرياح وانزعاج الماء واضطراب الهواء .(١)

وجدة كانت قرية على ساحل البحر الأحمر أكثر بيوتها أخصاص ، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين ، وفي أعلاها بيوت من الاخصاص . وأكثر أهل هذه الجهات فرق وأحزاب

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٤ / ٦٥ / ٦٦ .
ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٥٨ / ١٥٩
المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٣٢٨
البتنوني : الرحلة الحجازية ص ٢٨

Dozy: Supp. Dic . Ar, P. 204

تفرقوا على مذاهب شتى وكانت نظرتهم الى الحجيج نظـــرة استغلال هدفهم الحصول على أكبر قسط من الفائدة والربـــح منهم . فالحاج لا يزال مُغمهم فى غرامة ومؤنه الى أن ييسر الله رجوعة الى وطنـــة .(١)

وظلت جده منذ أيام عثمان بن عفان وحتى قيام دولـــة المماليك ميناء لمكة تستقبل الحجاج اليها بطريق البحر فتزدهر أسواقها فى مواسم الحج ، ويكثر النازلون بها والخارجـــون منها فيستفيد أهلها من ذلك استفادة كبيرة(٢). واستمرت جده فى النمو شيئا فشيئا تبعا لزيادة دخلها وقوة الحركة التجارية التى تقوم فيها فى مواسم الحج(٣). الا أن جـــده لم تصبح ميناء لمكة بل ميناء الحجاز ومن أكبر الموانـــى فى الشرق كلة قبل القرن التاســـع الهجرى (٤) .

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٨
(٢) البشتونى : الرحلة الحجازية ص ١٠
(٣) د. نعيم زكى ؛ طرق التجارة الدولية ص ١١٢
3) lane- poole: History of Fgypt in the middle ages p.309

عناية صلاح الدين بالحجاج المغاربة ووقف الأوقاف عليهم

قابل الحجاج - خاصة الحجاج المغاربة - الكثير من المصاعب والمتاعب وأخذ منهم الجهد ونال منهم التعب الكثير بسبب المكوس[1] التي فرضت عليهم وهم في طريقهم الى بيت الله الحرام . وكان الخلفاء العباسيون في بغداد يعرفون مقدار تلك المكوس التي تؤخذ من الحجاج القادمين بطريق البحر ، ويقفون الطرق لما يعانونه من ضعف من ناحية أخرى[2] .

ويصف ابن جبير كيفية معاملة الحجاج المغاربة بمصر وهم في طريقهم الى أداء فريضة الحج ، ومدى تعنت عمال

---

(١) المكس والجمع مكوس ، الضريبة غير الشرعية ، وقد شرح هذا المصطلح الدكتور محمد مصطفى زيادة في تعليقاته على كتاب (السلوك جـ ١ ص ٢٦٧ هامش ٤) بقوله " المكوس جمع مكس ، ومن معانيه في اللغة الحربية الضريبة التي كانت تؤخذ من بائعي السلع في الاسواق في الجاهلية ، والمكوس في مصطلح مؤرخي مصر الاسلامية كل ما تحصل من الاموال لديوان السلطان أو لأصحاب الاقطاعات أو لموظفي الدولة خارجا عن الخراج الشرعي ، وتسمى أيضا المال الهلالي ، وقد عرفت هذه الاموال في مصر باسم المكوس منذ الدولة الفاطمية ، ومن أنواعها ما كان يؤخذ في الثغور البحرية والبرية على المتاجر الواصلة من الخارج ، وما كان مقررا بالقاهرة والفسطاط على مختلف المحاصيل والمصنوعات والاماكن ، مثل مكس القوافل ومكس البهار ، ومكس فندق القطن ، ومكس معدية الجر بالجيزة وغيرها .
المقريزي : الذهب المسبوك ص ٨٨ هامش ٢

(٢) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٦٤
ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٥

الدواوين فى تحصيل المكوس منهم فيقول " يتوجة أمناء الى المركب القادم بالحجاج الى الاسكندرية لقيد اسماء ركابه وصفاتهم وأسماء بلادهم القادمين منها ، وسؤال كل فرد منهم عما لدية من سلع وخلافة ليؤدى زكاتة بغض النظر ان كان قد حال علية الحول أم لا ، ويستدعى هؤلاء الامناء أحد الركاب لسؤاله عن أسماء القفرب والسلع الموجودة بالمركب ويطاف به على الوالى والقاضى وعمال الدواوين ، ثم على جماعة من حاشية السلطان لنفس الغرض[1] . ثم يأمرونهم بانزال بضائعهم وما يحملونه من زاد ومؤونه لطريقهم ، والتوجه بهم الى مقر الديوان بالاسكندرية وقد خص بالزحام حيث يتم تفتيشها بحثا عما عسى أن يكون بداخلها ، وربما الزموهم الايمان على ما بايديهم أو عن وجود شيء آخر معهم ويحضرون كتاب اللهيقع اليمين عليه ،فيقف الحجاج بين أيدى عمال الدواوين مواقف خزى ومهانة . وفى أثناء ذلك يضيع الكثير من حاجيات الناس لكثرة الزحام واختلاف الايادى[2] ويواجهون عنتا ومشقة كبيرة ، وربما كان منهم من لا زيادة معه على نفقتة أولا نفقة عنده ، فيلزم بأداء الضريبة المعلومة وهى سبعة دنانير ونصف دينار مصرية على كل شخص ومن يعجز عن أداءها يتناول أليم العذاب بعيذاب فكانت كأعينها مفتوحة العين .

فلما سيطر صلاح الدين الأيوبى على مصر والشام ، أسقط تلك المكوس عن الحجاج وهى الباقية من المكوس الفاطمية وعوض الشريف مكثر بن عيسى أمير مكة عن ذلك بألفى دينار

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٤٤
(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٤٥/٥٩

وألف أردب قمح سوى اقطاعات بصعيد مصر واليمن لادراكة أن دخل مكة لا يفى بمصالح أهلها[١]. وكتب الى والى قوص بابطال المكوس التى تؤخذ من الحجاج وتجار اليمن[٢].

والى جانب ذلك ، كان من أجل الأعمال التى عنها السلطان صلاح الدين أنه عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان فى اليوم مهما كان عددهم . وعين من قبله أمينا يقوم بهذا العمل ، وقد يصل عدد ما يوزعه أو أكثر . وأوقف لذلك أوقاف من قبله مضافا اليها جزية اليهود والنصارى علاوة على ما عينه من زكاة العين لهذا الغرض وهى تساوى خمسة اثمان والثلاثة أثمان له . وطلب من عمالة وأكد عليهم أنه من ينقصه من الأموال المرصوده لهذا الشأن أن يرجعوا الى طلب ماله .

ومن أعجب ما يروى فى هذا الصدد أن بعض من يريد التقرب بالنصائح الى السلطان ، ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ولا حاجة لهم بها رغبة فى الاقامة لانهم لا يطلون الا بزاد يكفيهم ، فكاد يؤثر سعى هذا الناصح ويستجيب لقوله ... فلما كان فى أحد الايام خرج السلطان على سبيل الاستطلاع خارج بلده ، فلقى جماعة من هؤلاء الحجاج لفظتهم الصحراء المتصلة بطرابلس من جهة الغرب وقد أنهكهم ودوابهم الجوع والعطش [٣]. فسألهم عن وجهتهم

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٥.
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٤.
الخطط ج ٢ ص ٢٣٣
البتشونى : الرحلة الحجازية ص ٣٠
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤
(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٤٦

وعما لديهم ، فاعلموه أنهم قاصدون بيت الله الحرام وأنهم ركبوا البر وكابدوا مشقة في الصحراء ، فقال لو وصل هؤلاء وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التي اعتسفوها وكابدوا من الشقاء ما كابدوه وبيد كل واحد منهم زنته ذهبا وفضة لوجب أن يشاركوا ولا يقطعوا عن العادة التي أجريناها لهم ، فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء ويروم التقرب الينا بالسعي في قطع ما أو جبناه لله عز وجل خالصا لوجهه (١).

وفريضة الحج من الاركان الدينية التي تأثرت الى حد كبير بنظام الاوقاف في عصر المماليك ، ولا سيما بالنسبة لغير القادرين ، فاشترط كثير من الواقفين أن يصرف ريع أوقافهم أو جزء منه في ساعده غير القادرين لاداء فريضة الحج ، ذلك أنه بالرغم من أن الحج لم يفرض الا على القادرين الا أن قوة الشعور الديني في هذا العصر جعلت الكثيرين يتوقون لتأدية الفريضة ، ووجد الواقفون أن في اعانتهم على تادية الفريضة وجه من وجوه البر التي ينفقون فيها صدقاتهم من ريع أوقافهم ، فشرطوا أن يصرف جزء من ريع الوقف في كل سنة في ساعدة الذين يخرجون لتادية فريضة الحج ، ويشرفون على الهلاك اما لضعفهم أو لفقرهم سواء في طريق الذهاب أو العودة ، من ذلك ما يذكر من أن السلطان برقوق اوقف ناحية بهنيت(٢) على سحابة (٣) تسير مع الحج

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٤٧

(٢) بهنيت : هي احدى : قرى الجيزة القديمة
د. محمد محمد أمين : الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص ٢٢٣ هامش ٣

(٣) السحابة : هي الطائفة ممن يرافقون الحاج للمحافظة عليه
د. محمد محمد أمين : الاوقاف والحياه الاجتماعية ص ٢٢٣ هامش ٤

الى مكة فى كل سنة ، ومعها جمال تحمل المشاه من الحج ، وتصرف لهم ما يحتاجون اليه من الماء والزاد ذهابا وأيابا ويؤكد هذا المعنى ما جاء فى احدى الوثائق من توجيه جزء من ريع الموقف "وهو الذى بجهة الشاطر كل سنة صحبة الركب الشريف والمحمل السلطانى ، المتوجة الى الحجاز الشريف صحبة كل سنة ، صحبة من يوثق بديانة وخبرة وعفة وأمانة وكفايته والذى يصرف ذلك بطول الطريق ذهابا وايابا على المنقطعين من الحجاج الذين قاربوا الاشراف على الهلاك من المسلمين ، فى أجرة حمل واطعام طعام ، واسقاء ماء وكلفة ما يكون فى ذلك أبقا لمهجهم وحفظا لابدانهم فى ايصالهم الى مأمنهم على العادة ، ويصرف ذلك عليهم بمباشرة من يكون متصفا بصفات العدالة والخير والعفة والديانة ، ويصرف لمن يباشر ذلك ممن هو بالصفات المشروطة من الجماله ما يراه الناظر ، وذلك بمباشرة أمير الحاج ، وأطلاعة على ذلك ، فان فضل عن ذلك شيء فرقة بالحرمين المذكورين ، فان تعذر صرف ذلك فلى المنقطعين ، فرق على الفقراء والمساكين والايتام والضعفاء والعاجزين بالحرمين المذكورين أو بأحدهما ان تعذر الآخر (١).

---

(١) د . محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ص ٢٢٣/٢٢٤

اثر الحروب الصليبية على طريق الحج

تأثر نشاط القلزم بالخطر الصليبى الكامن فى بيت المقدس ، ومنذ مجىء الصليبيين الى الشام و سقوط بيت المقدس فى أيديهم سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م بدأ بلدوين الاول يفكر فى حماية هذه المملكة من ناحية الجنوب ، فقام بحملته الاولى الشهيرة فى شبة جزيرة سيناء ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة وهى المنطقة المعروفة باسم " وادى عربة " وكان الغرض من حملة بلدوين هذه عزل مصر عن بقية العالم الاسلامى فى الشرق وقطع الطريق البرى بينها وبين الشام والحجاز[١]. فبدأ بلدوين الاول بالسيطرة على وادى عربة ، ثم شيد سنة ٥٠٩هـ ١١١٥ م حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على وادى عربة بأكملها .

وفى العام التالى ٥١٠هـ/١١١٦م خرج بلدوين فى حملة أخرى ووصل حتى أيلة ، وبنى بها قلعة حصينة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام[٢]. كما شيد قلعة أخرى فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة ، وبذلك تمكن الصليبيون من الاشراف على شبة جزيرة سيناء ، ولكن رهبان دير القديسة كاترينة فى سيناء رفضوا التعاون مع

---

(١) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣١٨

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣١٨

Runciman : A History of the crusades Vol 1 P. 97-98

Setton : A History of the crusades Vol 1 P. 406.

بلدوين الاول أو حتى استخافته خشية انتقام الفاطميين في القاهرة مما جعل بلدوين ينصرف عائدا الى بيت المقدس[١] دون تحقيق هدفه . الا انه فكر في مهاجمة الفاطميين في مصر ليشعرهم بقوته ، فعبر الصحراء الممتدة من غزة الى العريش دون أن يتعرض لتهديد البدو في هذه المنطقة ،ووصل الصليبيون الفرما واستولوا عليها سنة ٥١٢هـ/١١١٨م وهي أول المراكز الاسلامية في الاراضي المصرية ، واتجه غربا حتى مدينة تنيس ، ولم يستطيع التقدم أكثر من ذلك لصغر قوته وموته قرب العريش في نفس العام[٢].

وقد تأكد هذا الاحساس في صورة عملية عندما قام ارناط حاكم حصن الكرك الصليبي بحملته الشهيرة على البحر الاحمر سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م مستهدفا بذلك السيادة على البحر الاحمر وطعن الاسلام في قلبه بغزو الحرمين الشريفين ، فانشأ سفنا وحملها الى البر الى بحر القلزم ، وأركب فيها الرجال وأوقف منها مركبين على حرزه[٣] قلعة القلزم لمنع أهلها من استقاء الماء ، وسارت البقية نحو عيذاب ،فقتلوا وأسروا واحرقوا في بحر القلزم نحو ستة عشر مركبا ، وأخذوا بعيذاب مركبا تأتي بالحجاج من جده وأخذوا أيضا في البر قافلة كبيرة فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع وأستولوا على مركبين فيها بضائع جاءت من اليمن ، وأطعمة كثيرة من الساحل كانت معده لميرة الحرمين ، وأرتكبوا حوادث

---

(١) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣١٩

(٢) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٠ ص ٣١٩/٣٢٠/٣٢١
ابن الاثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥١٢

(٣) الحزرة بكسر الحاء ، الموضع الحصين
المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٨ هامش ٤

لم يسمع فى الاسلام بمثلها . ولم يبق بينهم وبين المدينة المنورة سوى مسيرة يوم واحد .

ونتيجة لهذا الخطر الصليبى ، فقد كلف السلطان صلاح الدين أخاه الملك العادل بالاسراع الى القضاء على هذا الخطر وحماية المسلمين فاسرع العادل الى اعداد اسطول قوى فى البحر الاحمر تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ متولى الاسطول بديار مصر ، وبدأ حسام الدين بحصار أيلة وسار متجها الى عيذاب والحوراء قرب ينبع وكان بها الجزء الأكبر من تلك السفن الصليبية ، وظفر بمراكب الفرنجة فحرقها وسعد البر حتى أدرك من فرّ من الخونة بعد أن تعهد هؤلاء الخونة من البدو بارشادهم الى داخلية البلاد وأخذهم فساق منهم اثنين الى منى ونحرهما بها كما تنحر البدن . وعاد الى القاهرة بالاسرى فى ذى الحجة فضرب أعناقهم جميعا بعد استعراضهم فى شوارع القاهرة والاسكندرية وغيرها من المدن الكبيرة ،وأما الرئاط نفسة فقد أقسم صلاح الدين ألا يغفر له فعلتة هذه ونذر دمه (١).

وفى رسالة للقاضى الفاضل أوردها أبو شامة وابن واصل مؤداها أن الصليبيين استهدفوا من وراء تلك العملية الحربية تحقيق هدفين خطيرين أولهما : " قطع طريق الحاج عن حجه وضرب العالم الاسلامى فى قلبه وطعن المسلمين فى قبلتهم ".

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٩
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٧
ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٧
د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٩

وثانيهما : " أن الطليبيين كانوا يزمعون الاستيلاء على عدن في جنوب البحر الأحمر لأخذ تجار اليمن وعدن " .(١)

ونستدل من كتاب صلاح الدين للخليفة العباسي تصميمه وعزمه على اقرار النفوذ الاسلامي في البحر الأحمر حين قال " ان انتصار الاسطول الطليبي القاعد سواحل عدن واليمن يمنع طريق الحاج من حجه ويأخذ تجار اليمن وكارم عدن ويلم بسواحل الحجاز ".(٢)

وفي النهاية فقد استطاع صلاح الدين من فرض سيطرته على الحجاز واستيلائه على قلعة أيلة بعد احباط محاولة أرناط في تنفيذ محاولاته العدوانية في البحر الأحمر سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م ، وواصل الايوبيين جهودهم بعد صلاح الدين لأحكام السيطرة على البحر الاحمر ، فكانت قطع أسطولهم تمخر عباب هذا البحر الى الحجاز واليمن وغيرها .(٣)

واستمر اهتمام سلاطين المماليك بالبحر الاحمر حيث كان لهم قوة حربية بحرية دائمة به ، وكانت عدة هذه القوة خمس مراكب ثم غدت ثلاثة ، وكان والي قوص هو المتولي لقيادة هذا الاسطول والتي كانت مهمته تنحصر في حراسة الموانى الغربية للبحر الأحمر ، وكان رمزا لانزال الرعب في قلوب كل من تسول لهم أنفسهم تهديد سلامة القوافل .(٤)

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٦ / ٢٧
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٣٠
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٦ / ٣٧
ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٧
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤ / ٧٦
(٤) المقريزى / السلوك ج ١ ص ٥٥٠

وكان هناك من الاسباب الدينية مما جعلها تحرص على اظهار وجود قوتها البحرية فى البحر الأحمر ، ويتجلى ذلك بوضوح عندما لم يفترف أشراف مكة والمدينة باحياء الخلافة العباسية سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م التى أقامها الظاهر بيبرس بالقاهرة واقتسموا الحجاز فيما بينهم ، وكان بيبرس قد رأى أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع السياسة التقليدية المصرية ، ونتيجة لذلك عمد الى احياء الخلافة العباسية فى القاهرة ، فنصب أمير من أمراء العباسيين الفارين من وجه المغول وبايعه بالخلافة ولقبه " المستنصر بالله "(١). وبعد أن تمت له البيعة قام بدوره وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز ومايغزوه من بلاد الأعداء. وقد اكتسب بيبرس بهذا العمل الشرعى نفوذا أدبيا وروحيا فى الاوساط الاسلامية مما مكنه من السيطرة على الحرمين واقصاء نفوذ الحفصيين منها ومد سلطانه باسم الخلافة على الحجاز والبحر الأحمر .(٢)

---

(١) د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص ١٢٧

(٢) د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص ١٢٨

المراجـــع والمصادر

المراجـــع العربيـــــة :

ابن الأثيـر : (أبو الحسن بن على الجزرى الملقب عز الدين)
- الكامل فى التاريـــــخ
١٢ جزء القاهـــرة ١٣٥٧ هـ

ابراهيم رفعت باشا :
- مرآة الحـرميـــــن
جزءان ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م

ابن بطوطـــة : (محمد بـن عبد الله)
- رحلة ابن بطوطة المسماة " تحفة النظار فـى غرائب الأمصار وعجائب الاســـفار "
جزءان ، المكتبة التجارية المصرية ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م

ابن تغرى بردى : (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
١١ جزء دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٠ م

ابن جبيـــــر : (أبى الحسين محمد بن أحمد بن جبيـــــر الكنانـى الاندلســـى)
- رحلة ابـن جبيـــــر
دار الكتاب اللبنانى - المصرى

حسن ابراهيم حسن (دكتور)
- الفاطميون فى مصر
القاهرة ١٩٣٢ م

أحمد مختار العبادى (دكتور)
- دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس
الاسكندرية ١٩٦٨
- البحرية الاسلامية فى مصر والشام فى عصرى
الايوبيين والمماليك بالاشتراك مع دكتور
السيد عبد العزيز سالم بيروت ١٩٧٢ م

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)
- الحركة الصليبية
جزءان ، القاهرة ١٩٦٣
- العصر المماليكى فى مصر والشام
القاهرة ١٩٦٥
- الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام
القاهرة ١٩٧٠

السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)
- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة
جزءان ، القاهرة ١٢٩٩ هـ

أبو شامة : (عبد الرحمن بن اسماعيل شهاب الدين)
- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين
القاهرة ١٢٨٧ هـ

ابن شداد : (بهاء الدين يوسف)
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
القاهرة ١٩٦٤ م

على باشـــا مبـــارك

- الخطط التوفيقية الجديـــدة

٢٠ جزء ١٣٠٤ - ١٣٠٦ هـ

القلقشـــندى : (أحمد بن على بن أحمد بن عبد اللـه)

- صبح الأعشى فى صناعة الانشـــا

١٤ جزء القاهـرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ م

المـــاوردى : (أبو الحسن على بن محمد بن حبيـــب)

- الأحكـــام الســـلطانية

مطبعة الســـعادة بمصر ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م

محمد حمـــدى المنـــاوى (دكتـــور)

- نهـــر النيـــل فى المكتبـــة العربيـــة

القـــاهرة ١٩٦٦ م

محمد عبد العزيـــز مرزوق

- الزخرفـــة المنسوجة فى الاقمشـــــة

الفـاطميـــة

دار الكتب المصرية ١٩٤٢ م

محمـــد عبـــده الحجـــاجى

- قوص فى التاريـــخ الاســـلامى

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م

محمد لبيـــب البتنـــونى

- الرحلـــة الحجـــازية

مطبعـــة الجمالية بمصر ١٣٢٩ هـ

محمد محمد أمين (دكتور)
الاوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر
دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٠ م

المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على)
- السلوك لمعرفة دول الملوك
الجزئين الاول والثانى فى ٦ مجلدات
تحقيق دكتور محمد مصطفى زيادة
القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ م
الجزئين الثالث والرابع فى ٦ مجلدات
تحقيق دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٣ م
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
المعروف بالخطط طبعة بولاق فى جزئين
١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ م
والطبعة الاهلية فى ٤ أجزاء مطبعة
النيل القاهرة ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ
- الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء
والملوك تحقيق دكتور جمال الدين الشيال
القاهرة ١٩٥٥ م

ابن مماتى : (أبو المكارم أسعد بن الخطير)
- كتاب قوانين الدواوين
تحقيق دكتور عزيز سوريال عطية
القاهرة ١٩٤٣ م

ناصر خسرو علوى
- سفر نامة
نقله من الفارسية الى اللغة العربية
دكتور يحيى الخشاب
القاهرة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م

نعيم زكى فهمى (دكتور)
- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين
الشرق و الغرب
القاهرة ١٩٧٣ م

ابن واصل : (جمال الدين محمد بن سالم)
- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب
٣ أجزاء الاولى تحقيق دكتور جمال الدين
الشيال ١٩٥٣ م، والجزئين الرابع
والخامس تحقيق دكتور حسنين محمد
ربيع ١٩٧٢ م ، راجعه وقدم له دكتور
سعيد عبد الفتاح عاشور

ياقوت : (شهاب الدين عبد الله الحموى)
معجم البلدان
٢٠ جزء القاهرة ١٩٣٦ م

المراجـــع الاوربيـــة :

Dozy, R.P.A : Supplement aux Dictionnaires Arabes. . Paris 1927

Encyclopaedia of islam.

Lane - Poole, stanly : A History of Egypt in the Middle ages. London 1944.

Runciman : A History of the crusades 3 vols (Cam bridge 1957).

setton, K.M. : A History of the crusades Vol 1 the first hundred years ed. by M.W. Baladwin 1958.